المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ورضوان الله على من تبعه بإحسان وسار على سيرته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن مئات الكتب قد تناولت سيرة الرسول ﷺ. حتى لم تدع هذه الكتب جانبا من جوانب سيرته العطرة إلا تطرقت إليه على تفاوت بين هذه الكتب من حيث الإيجاز والإطناب، ومن حيث التفصيل والإشارة.

ومع ذلك فإن أكثر هذه الكتب اتبعت منهج السرد التاريخي وذكر الوقائع، وقليل منها ما كان يغوص في أعماق الوقائع ليستخلص منها الدروس والعبر على تفاوت بين هذه الكتب أيضاً، وبالقدر الذي يميز باحثا عن آخر في استنباط العبر والدروس، واستخلاص النتائج

وهذا المنهج هو انسب المناهج وأصلحها لدراسة السيرة، ولذلك رأيت أن يكون لي في هذا الدرب مكان لموضع قدم، لعل الله سبحانه وتعالى يلهمني بتوفيقه لاستخلاص ما يمكنني استخلاصه من تلك العبر والدروس والحكم؛ للاستفادة منها في حاضرنا ومستقبلنا، فالرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

ومهما يكن من الجهود التي بذلت فإن سيرته ﷺ تزخر بالكثير من العظات والقدوة الحسنة التي لا يمكن أن نقول إن أحدا قد أحاط بها فلم يعد هناك مجال لغيره. وبذلك فإن ما عقدت عليه العزم أشبه ما يكون بمن يقف على شاطئ بحر زاخر يغترف منه غرفة بيده أو يغوص ليخرج لؤلؤة من لآلية، وهذه الغرفة واللؤلؤة لا يساويان شيئا أمام ذلك البحر الزاخر.

إن سيرة الرسول ﷺ هي الاستقامة في أسمى معانيها والهدى في أكمل صوره وأعظمها؛ لأنها سيرة المعصوم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، واصطفاه من خلقه؛ ليكون خاتم الرسل فلا ينطق عن الهوى، ولا يعمل عملا أو يقره إلا إذا كان خيرا محضا، وبذلك فإن الهدى في هديه، والنجاة في إتباع سيرته.

ولن نستفيد شيئا إذا اعتبرنا أحداث السيرة أحداثا تاريخية مجرده تبدأ وتنتهي كما يبدأ أو ينتهي أي حدث، وإنما تكمن الفائدة في استخلاص العبرة، والتطبيق العملي الصحيح.

ولا تطبيق بدون معرفة، فالمعرفة أولا ثم التطبيق وذلك ما تربي عليه السلف الصالح ابتداء من الصحابة ﷺ، ولا نهاية لمسيرة الهدى بإذن الله، وستبقي طائفة من هذه الأمة على مسيرة الحق. وندعو الله سبحانه وتعالى أن نكون منهم، وأن يزداد عدد هذه الطائفة حتى يعم جميع المسلمين، وما ذلك على الله بعزيز.

وإن الإنسان ليشعر بالتهيب ونور هذه السيرة يبهر الأبصار، ولكن ليس كل ما لا يدرك يترك، وشيء خير من لاشيء، والله هو المعين، واسأله وحده أن يلهمني السداد، وان يمدني بتوفيقه، {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب}(هود: 88). وقد قسمت الكتاب إلى خمسة أبواب:

الباب الأول: حالة العرب قبل البعثة.

الباب الثاني: من الميلاد إلى البعثة.

الباب الثالث: الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة.

الباب الرابع: الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة.

الباب الخامس: الغزوات والسرايا.

وكل باب يخص مرحلة متميزة. مع خاتمة تتضمن خلاصة لما احتواه الكتاب، وبعض المقترحات بخصوص دراسة السيرة.

وليس من غرضي، وليس في وسعي أيضاً أن يكون هذا الكتاب شاملا، وإنما حسبي أن أقف عند بعض الأحداث والغزوات؛ لأن التعرض لكل جوانب السيرة يجعل الكتاب من الإطالة بحيث يشق على الطالب حمله أو استيعاب ما فيه، وليس في ترك بعض الأحداث ما يفيد عدم أهميتها.

وباعتباره كتابا للطلاب فيكفي أن يلبى حاجتهم ويغطى مفردات المنهج المقرر، مع التزام المنهج الذي أشرت إليه بإذن الله.

لمحة سريعة عن مصادر السيرة:

وعلى من أراد الاستزادة أن يستعين بالعديد من الروافد التي تصب كلها في نهر واحد، وهو نهر لا ينضب ماؤه ولا يضعف عطاؤه، ويتدفق هذا النهر، وبقوة روافده يحيا الهدى وقيم الإسلام النبيلة، وتحيا في نفوس المسلمين مكارم الأخلاق التي بعث الرسول ﷺ لإتمامها.

{ويأبى الله إلا أن يتم نوره} وهو على كل شيء قدير.

المصدر الأول للسيرة النبوية: القرآن الكريم ففي الكثير من آياته إشارات إلى أخلاق الرسول ﷺ وغزواته الكبرى مثل بدر واحد والأحزاب وحنين والعسرة وفتح مكة وخيبر. وقد تضمنتها سور: الأنفال وآل عمران والأحزاب، والتوبة، والفتح، والحشر، كما تضمنت آيات أخر مبايعة المؤمنين له في بيعة الرضوان وبيعة العقبة الثانية، والتشريع في زواجه من زوجة متبناه.

أما المصدر الثاني فهي السنة الصحيحة التي أثبتت كثيرا من الوقائع والمواقف العملية والتقريرية في مصادرها الصحيحة.

والمصدر الثالث ما كتبه التابعون من أمثال:

عروة بن الزبير ت 92 وأبان بن عثمان ت 105 ووهب بن منبه ت 110، وشرحبيل بن سعد ت 123، وابن شهاب الزهري ت 124 هـ

وإن كان أكثر ما جمعه هؤلاء قد أصابه التلف حتى جاء في مقدمه من دون السيرة ابن إسحاق ت152، والواقدي ت206 ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى المشهورة.

وبعد مضي أكثر من نصف قرن جاء محمد بن عبد الملك ت 218. المعروف بابن هشام فروى سيرة ابن إسحاق منقحة. مهذبه وهي عبارة عن اختصار لمغازي ابن إسحاق المشار إليها. ثم تتابعت المسيرة حتى لا يستطيع الباحث أن يحدد اسم آخر كتاب، إذ أن المطابع تخرج باستمرار كتبا جديدة بين المطول والمختصر.

ودراسة السيرة تجعل المسلم يقف على التطبيق الصحيح للإسلام كما طبقه الرسول ﷺ

إمام المتقين والمهتدين، وبذلك يكون علم السيرة من أهم العلوم، وقد قال الزهري رحمه الله في علم المغازي خير الدنيا والآخرة، والمغازي جزء من السيرة بمعناها العام وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ وسراياه، فيقول: يا بنيّ هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها[1]. وإذا أطلقت السيرة فيراد بها الجانب الذي يمثل حياة الرسول ﷺ بوصفه رسولا يتصرف وفقا للوحي، ويجب إتباعه وهي أقسام قسم عملي وقسم تقريري كأن يرى عملا ويرضى به، ولا ينهى عنه؛ لأن سكوته إقرار فهو لا يقر خطأ أما ما كان من خصوصياته أو ما يسمى الخصائص فليس مطلوبا من المسلمين تقليده فيه كالوصال في الصوم حيث نهى عن ذلك لما فيه من المشقة معللا ذلك بأن الله يطعمه ويسقيه فهو من خصوصياته، وكذلك زواجه بأكثر من أربع نسوة فيحرم على غيره ذلك.

وأما القسم الآخر من سيرته فهو الذي يمثل جانبا من حياته - كسائر البشر، وقد يتصرف وفقا لهذا تصرفا يتبين له خطؤه فيتراجع عنه كنهيه عن تأبير النخل ثم تراجعه عن ذلك حيث قال: انتم اعلم بدنياكم.

وخلاصة القول فإن ما يجب أن يطبقه المسلمون من سيرته هو القسم الأول الذي يثبت تصرفات الرسول ﷺ أقوالا وأفعالا وتقريرات، وليس من خصوصياته ﷺ.

(1) السيرة الحلبية على برهان الدين الحلبي وبهامشها السيرة النبوية لاحمد زيني وجلان جـ1 ص 2 دار الفكر وهي تلخيص لما كتبه أبو الفتح بن سيد الناس المسمي عيون الاثر وسيرة الشمس الشامي كما صرح بذلك في المقدمة.